

الفيلسوف حمودة بن ساعي "رجل في عمق المعاناة"

الدكتور: عبد الرزاق قسوم

جامعة الجزائر (2)- الجزائر

إن "الموت لراحة" هكذا يقول المثل الجزائري. ولعل هذا المثل ينطبق أكثر على المرحوم محمد حمودة بن ساعي ، الذي يعتبر-بلا منازع- من عظماء المثقفين الجزائريين ، و الذي وافاه الأجل ، بمدينة باتنة مسقط رأسه ، في شهر ماي 1998 ، في ظروف مأسوية يلفها النسيان الشنيع ، وتطبعها الفاقة المدقعة. انه باختفاء هذا المثقف ، تطوى رحلة قرن بكامله (1902-1998) بعد مسيرة اتسمت بالغربة المأسوية.

لقد كان ابن ساعي كاتباً ، و مفكراً على نطاق واسع ، و لكنه ظل مجهولاً ، يواجه قدراً شرساً ، لا ينبس ببنت شفة مما يعانيه من المصير المزري ، و كل شغله الشاغل طيلة حياته ، هو الحفاظ على نزاهته الخلقية و الفكرية ، إلى أن لفظ أنفاسه وحيداً ، في "كوخ" معزول.

إنها ليست المرة الأولى ، التي يحدث فيها مثل هذا الموقف ، ذو الخصوصية الجزائرية ، و الذي يبعث على الحيرة ، فغياب ابن ساعي يذكر بحالات أخرى مماثلة ، منها حالة المأسوف عليه ، على الحمامي (1920-1949) الذي كان محباً للثقافة ، و أحد وجوه الوطنية الجزائرية الذي مات في حادث سقوط طائرة بالباكستان ، حيث ذهب للدفاع عن قضية وطنه خلال انعقاد مؤتمر للبلدان الإسلامية ، و كذلك حالة محمد تازروت (1973-1989) الذي ترجم عمل أوسوالد سبنغلر (فيلسوف السقوط الحضاري) ، وله مؤلفات عديدة حول الثقافة و الحضارة ، فقد توفي هو الآخر وحيداً عن عمر يناهز 75 سنة في فندق صغير بطنجة ، و لو أنه على نحو أقل من حالة سابقه.

الفيلسوف حمودة بن ساعي "رجل في عمق المعاناة"

وهناك أيضا بن مالك بن نبي (1905 – 1973) صاحب نظرية الحضارة... فقد عاش هو الآخر في جو الفقر والحرمان.

فمن يذكر هؤلاء المثقفين؟ وقبل ذلك من يعرفهم بالرغم مما ساهموا به في الفكر الإنساني لاسيما تازروت ، وبن نبي؟

إن يذكر مما لا شك فيه أن من بين هؤلاء المثقفين المتميزين ، يبرز حمودة بن ساعي ، الذي يعتبر أكثرهم ضحية للتجاهل.

يقول الكاتب لابرويـار LA BRUYRE: "إن هناك نوعا من البؤس يعصر القلب ، ولكن البؤس الذي عانى منه بن ساعي ، يدعوا حقا إلى الثورة.

إن هذا المثقف ، الذي كان طالبا في جامعة السوربون خلال الثلاثينات ، هو صاحب الأطروحة حول أبي حامد الغزالي ، وكان من بين أصدقائه ، قمم في الفكر من أمثال أندري جيد ، وعبد الحميد بن باديس ، ومحمد البشير الإبراهيمي ، وأعلام في السياسة ، ومن أمثال الهادي نويرة الذي أصبح الوزير الأول فيما بعد لحكومة تونس.

إن المثقف الجزائري ابن ساعي ، قد رفض دوما ، مقايضة موهبته ، أو ثقافته الرائعة ، فلم يكن مصابا بداء الانتهازية ، والوصولية التي تدفع كما هو الحال في أيامنا هذه ، إلى الانحناء ، أو اللجوء إلى طرق غير شريفة مثل "القفزة" ، و"الهدف" و"المحسوبية" أو بأن يضع نفسه في خدمة أية مؤسسة تدر عليه نفعا.

إن الحاجة قد حكمت عليه بممارسة عمل متواضع ، ولكنه شريف ، مهنة الكاتب العمومي في إحدى مقاهي مدينة باتنة ، وقد اضطلع بذلك على أحسن وجه.

إن في هذا تذكير لنا "بفونتين" Fontine ، تلك الأم المعذبة ، في كتاب "البؤساء" ، والتي يقول على لسانها الكاتب المعروف فيكتور هيغو ، وهو يصور هذه الحكمة التي تعكس بحق تدهور الوضع الإنساني: "قد نتعود على فكرة فقد الاعتبار ، كما نتعود على حياة البؤس" ، لكن المهم بالنسبة لابن ساعي هو صيانة الأمانة ، والنزاهة الخلقية والفكرية.

الدكتور: عبد الرزاق قسوم

"إنني أمل أن ندرك ، وبما لا يدع مجالا للشك ، أنه أمام الألام الكبرى ، فالصمت وحده هو أحسن علاج" هكذا كتب ذات يوم ابن ساعي إلى صديقه الدكتور عبد العزيز خالدي. ومضى يقول في نفس رسالته إليه "إنني لا أنتظر أي شيء ، من أي شخص ، أنتظر فقط قليلا من الاحترام لحياتي الشريفة ، فهل أكون بذلك قد طلبت كثيرا في هذا البلد المسكين".¹

غير أن معاناة ابن ساعي لا تتمثل في حرمانه المادي ، بقدر ما تتجلى في الشعور بالاضطهاد ، الذي ظل مستبدا به حتى الموت ، منذ أن رأت الأوساط المكلفة - في فرنسا - بالكفاح الإيديولوجي داخل البلاد المستعمرة ، في نشاطه ممثلا في كتاباته وفي محاضراته ، خطرا على استتباب الأمن. فهو يذكر هذه المرحلة الهامة في حياته في مذكراته التي لا تزال مخطوطة فيقول في شهر جوان 1935 ، وبعد تحمل شتى المصائب ، اضطرت ، تحت الحاجة ، إلى قبول العمل كمجرد عامل يدوي في المصنع الاساني المعروف "SUIZA" والموجود بكلولومب - إحدى ضواحي باريس) وفي يوم الجمعة 13 ديسمبر 1935 حضرت محاضرة ألقاها (المستشرق المعروف) السيد لوي ماسينيون في نادي الاتحاد المسيحي ، وكان موضوعها: "محنة الإسلام ، والجدير بالملاحظة أن السيد ماسينيون قد لمحني مع الحاضرين ، وفي يوم 26 ديسمبر ، وصلني الإشعار التالي من إدارة المصنع الذي اعمل به ، والذي جاء فيه يؤسفنا أن نعلمكم بفصلكم من مصنعنا ، ابتداء من تاريخ 6 جانفي 1936".²

إن هذا الموقف الذي لا يتلاءم - مبدئيا - مع مستوى المستشرق الكبير ، قد وقعت الإشارة إليه ، وعلى نحو مماثل أيضا ، من طرف الأستاذ ابن نبي في مذكراته ، حيث أنه لقي نفس المعاملة من طرف ماسينيون لأنه ألقى محاضرة في باريس ، لا تتفق واتجاه المستشرق.

إن السيد ابن ساعي ، الذي أجبر على معاناة البطالة ، قد اضطّر إلى معاناة البؤس ، بل إن ظروف هذا البؤس لم تتغير خلال العشرينات من عمر استقلال بلاده التي أجبها دائما.

الفيلسوف حمودة بن ساعي "رحل في عمق المعاناة"

ولم يكن ابن ساعي الوحيد في ذلك ، فحتى المأسوف على شبابه ، الطاهر جاووت ، لم يكن في رغد من العيش كما توحى بذلك شهرته المكتسبة ، حسب ما كتبه عنه القاص الجيلالي خلاص الذي زاره في شقته المتواضعة.

هل هذه هي النزعة الطبيعية التي يتميز بها هذا البلد - وهي احتقار رجال

الثقافة؟

قد يكون من الطبيعي أن يحدث مثل هذا ، في مجتمعات فتية لم تدرك بعد أهمية الأفكار ، ولا دورها الحاسم في صياغة التاريخ ، ولم تزود بعد بالإمكانيات ، التي تجعل كل مفكر يتبوأ المكانة التي يستحقها ، ولكن يبقى مع ذلك ، أنه بالنسبة لوضعنا ، فإن الصمت الذي غالبا ما كان يطبع موقف الكتاب الجزائريين ، المنضوين تحت لواء الاتحاد ، أو من جانب مؤسسات ثقافية أخرى في البلاد ، إزاء مثقفينا الذين يموتون في كنف النسيان ، إن مثل هذا الصمت لا يبعث على الاشمئزاز فقط بل إنه صمت مخز.

لقد ترك ابن ساعي مخطوطات ثمينة والتي يجب أن تحظى - على الأقل - بعناية خاصة ، وأن يقع التكفل بها من طرف وزارة الثقافة ، فطبعها يمثل نوعا من التقدير بعد الوفاة ، لأحد مفكرينا وذلك أضعف الإيمان.

المراجع:

فصل من كتاب للمؤلف سيصدر قريبا - إن شاء الله - بعنوان إعلام ومواقف في ذاكرة الأمة "عن الدار العثمانية".

- 1- مقتطفات من مقال علي بلقاسم بعنوان: حمودة بن يساعي ، حياة وسط الإعصار ، مجلة الثقافة الإفريقية العدد 1303 بتاريخ 1989/2/24.
- 2- المصدر السابق.